تمهيد

كيف رحل الاستعمار من الباب الأمامي
ثم تسلل عائدا من نافذة جانبية؟

عدتُ إلى شقتى بشمال لندن، ذات ليلة فى سبتمبر عام ١٩٩٧، لأجد رسالة صوتية على آلة الرد الآلى بهاتفى، من رجل أسْمَى نفسه المستر أوتوج. قال إنه سمع من رئيس تحرير الفاينانشيال تايمز، عن زيارتى المرتقبة إلى الجابون، المستعمرة الفرنسية السابقة على الشاطئ الغربى لإفريقيا، وذكر أنه على استعداد لمساعدتى هناك، وترك رقماً لهاتفٍ فى باريس. من المستغرب أننى عاودت الاتصال به فى الصباح التالى.

كان من المفترض أن تكون تلك رحلة صحفية روتينية لبلد إفريقى صغير: لم أكن أتوقع أن أجد الكثير للكتابة عنه فى تلك المستعمرة السابقة الثرية بالنفط وقليلة عدد السكان، لكن حقيقة أن الصحفيين المتحدثين بالإنجليزية كانوا لا يكادون يذهبون هناك أبدا كانت، تعنى أننى سأستأثر بالمكان لنفسى. لدى وصولى، اكتشفت أن المستمر أوتوج كان قد سبقنى هو ومساعد له إلى العاصمة ليبرفيل بالدرجة الأولى على متن طائرة تابعة لإيرفرانس، وحجز إقامة لمدة أسبوع بأغلى فندق بالمدينة – كانت مهمتهما الوحيدة، كما أبلغنى مبتهجا، هى مساعدتى.

obeikandl.com

كنت قد قضيت سنوات وأنا أقيم ببلدان إفريقية واقعة على شاطئ الأطلسى بدءا من نيچيريا شمالاً ومرورا بجابون وانتهاء بأنجولا فى الجنوب، وراقبت الأحداث هناك وكتبت عنها. هذه المنطقة تمد الولايات المتحدة بحوالى سدس وارداتها النفطية، وتمد الصين بحوالى نفس المعدّل. بيد أنه، وتحت قشرة الثراء الهائل هذا تكمن أبشع حالات الفقر وعدم المساواة والصراعات. من المفترض للصحفيين لدى وصولهم إلى مثل تلك الأماكن أن يبدأوا فى تقصى قصة مثيرة فى مكان ما ملىء بالأحداث والأخطار؛ لكننى، وبدون توقع، وجدت قصتى هنا فى سلسلة من الاجتماعات المهذبة المثيرة للقلق: غداء مع وزير المالية؟ لا مشكلة. رتب مونسيور أوتوج الأمر بمكالمة هاتفية. تناولت الشراب مع چان پينج وزير الخارجية النافذ ذى الأصول الصينية والذى أصبح فيما بعد رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة ومنحنى كل ما طلبته من وقت لإجراء حوار معه، وسألنى بكياسة عن أحوال عائلتى. فى لقاء

obeikandl.com

آخر مع وزير النفط، ضرب الرجل بكفه، بمودة، على كتفى وعرض علىّ مازحاً بئر نفط - ثم تراجع عن عرضه قائلا «لا، هذه الأشياء لكبار القوم فقط - للمهمين».

قضيت أسبوعا، لم أبتعد خلاله أبدا أكثر من مائتى ياردة عن الفقر الإفريقى المدقع، بشوارع ليبرفيل، وأنا أتجول فى أنحاء فقاعة. فتح المستر أوتوج، الجدير بكل تقدير، أمامى منطقة من الترف مكيف الهواء: كان يُدفع بى إلى الصفوف الأمامية لأرى الأشخاص النافذين وكانوا دائما يُبدون سرورهم للقائى. هذا العالم الموازى السحرى الذى يُشكّل أساسه تهديد غير منطوق بالعنف ضد أى أحد داخل الفقاعة أو خارجها، يمكن تجاهله بسهولة، لكن محاولات المستر أوتوج لشغل كل دقيقة من وقتى جعلتنى أصمم على اكتشاف ما يحاول إخفاءه. وفى الواقع، فقد عثرت بالصدفة على ما أصبح يعرف على نطاق واسع فى باريس ومن خلال الفضائح، باسم «قضية إلف the ElF AFffair».

obeikandl.com

بدأت هذه القضية من بدايات جد صغيرة عام ١٩٩٤، حينما دخلت شركة مقرها الولايات المتحدة اسمها فيرتشايلد كوربوريشنFairchild Corporation فى نزاع تجارى مع أحد رجال الصناعة الفرنسيين. أطلق النزاع تحقيقا فى أوساط سوق الأوراق المالية فى فرنسا تولته إيڤا چولى موظفة التحقيقات القضائية الفرنسية. وعلى النقيض من الأنظمة القانونية الأنجلو ساكسونية حيث يقارع الادعاء ممثل الدفاع من أجل التوصل إلى قرار، فإن قاضى التحقيقات فى فرنسا يعمل كمخبر سرى محايد موضوع بين الطرفين، حيث من المفترض له / لها تفحص الموضوع وتقصيه حتى تُكتشف الحقيقة. كلما كانت چولى، نرويجية المولد، تتفحص شيئا كانت خيوط أدلة جديدة – تتكشف – ومضت تحقيقاتها تتعمق. وقبل انقضاء وقت طويل، تلقت تهديدات بالقتل: أُرسِل إليها بالبريد نعش مُصغّر، وأثناء دهمها لأحد الأمكنة وجدت مسدسا ماركة سميث ووسون محشوا بالطلقات موجها نحو المدخل. لكنها ثابرت، واشترك فى الموضوع مزيد من المحققين. وفيما تراكمت التكشفات المذهلة، بدأوا فى تبيّن كفافَاتِ نظام فساد هائل يربط بين إلف أكيتين ElF Aquitaine، والمؤسسات السياسية الفرنسية والاستخبارية العملاقة وبين عمر بونجو حاكم الجابون الفاسد.

تعتبر قصة بونجو نموذجا مُصغّرا لعملية إنهاء الاستعمار الفرنسى. فعلى الرغم من أن المستعمرات نالت استقلالها رسميا، إلا أن الأسياد السابقين وجدوا الأساليب التى بها يظلون متحكمين فى تلك البلدان من خلف الكواليس. أصبحت الجابون مستقلة عام ١٩٦٠ فيما كانت فى بداية ظهورها بلدا إفريقيا نفطيا واعدا، وركزت فرنسا اهتماما خاصا عليها. كانت ثمة حاجة لنمط الرئيس الصحيح؛ زعيم إفريقى حق، كاريزمى، قوى، ماكر، وموالٍ لفرنسا تماما لدى الحاجة، وكان بونجو المرشّح المثالى. كان ينتمى إلى مجموعة إثنية شديدة الصغر ولم يكن له قاعدة دعم داخلية طبيعية، من ثم، كان لابد له أن يعتمد على فرنسا من أجل حمايته. أصبح بونجو فى عام ١٩٦٧، وكان فى الثانية والثلاثين من العمر، أصغر رئيس جمهورية

obeikandi.com

فى العالم، ووضعت فرنسا عدة مئات من الجنود المظليين فى ثكنات بليبرڤيل تصلها بأحد قصوره أنفاق تحت الأرض.

أثبت هذا العامل الردعى كفاءته بدرجة أنه لدى وفاة بونجو عام ٢٠٠٩، كان قد أصبح زعيم العالم رقم واحد الذى ظل يحكم أطول مدة.

وكما أوْجز لى أحد الصحفيين الفرنسيين الوضع: «لقد رحل الفرنسيون من الباب الأمامى وتسللوا عائدين من نافذة جانبية».

وفى مقابل دعم فرنسا له، منح بونجو الشركات الفرنسية حقوقا شبه حصرية للتنقيب عن النفط والمعادن وامتلاكها فى بلده بشروط جد تفضيلية. كان له أيضا أن يصبح مسمار المحور الإفريقى فى شبكة فساد شبحية شاسعة كوكبية تربط سرا بين الصناعات النفطية فى مستعمرات فرنسا الإفريقية السابقة وعالم السياسة السائد فى فرنسا المتروبوليتانية عن طريق سويسرا ولوكسمبورج والملاذات الضريبية الأخرى. اكتشفت چولى أن أجزاء من صناعات الجابون النفطية كانت تُخصّص كصناديق أموال قذرة عملاقة وتتيح مئات الملايين من الدولارات للنخب الفرنسية. تطور ذلك النظام تدريجيا، لكنه بحلول السبعينيات، كان بالفعل يعمل آلية سرية لتمويل الحزب الفرنسى اليمينى الرئيسى RPR. حينما أصبح فرانسوا متران الاشتراكى رئيسا لفرنسا عام ١٩٨١، حاول اقتحام ماكينة النقد الفرانكو/ إفريقية فى ملاذاتها الضريبية الآمنة بأن نصَّب لو فلوش - بريجان رئيسا لمؤسسات إلف EIF ليضطلع بالمهمة. لكن رجل متران كان من الحكمة بدرجة قرر معها ألا يقطع التمويلات عن الحزب. فى كتاب مرجعى لهما عن الموضوع ذكر ڤالرى لوكاسابل وإيرى روتييه إن «لو فلوش كان يعلم أنه إذا قطع شبكة التمويلات عن حزب اليمين واستخباراته ستتحول الأمور إلى حرب، وبيّن بدلا من ذلك أن زعيمىْ حزب اليمين - چاك شيراك وشارل پاسكوا - كانا على استعداد لأن يأخذ الاشتراكيون قطعة من الكعكة، إن تم توسيع الشبكة».

لم يكن الأمر يتعلق بتمويل الأحزاب السياسية فقط، فقد استطاعت كبرى

obeikandl.com

الشركات الفرنسية الاستفادة من منجم النفط غرب الإفريقى كمصدر مالى مكنها من دفع الرشاوى إلى أماكن مثل ڤنزويلا وألمانيا وجرسى وتايوان، فيما ضمنت أنَ تقصّى تلك النقود لن يقود إليها. أيضا، عملت نقود إلف القذرة على تزييت عجلات الدبلوماسية السياسية والتجارية الفرنسية فى جميع أنحاء الكوكب. أخبرنى أحدهم كيف أنه حمل حقيبة ملابس مليئة بالنقود من عمر بونجو لرشوة أحد كبار المتمردين الانفصاليين فى إقليم كابيندا التابع لأنجولا حيث كان لمؤسسة إلف عقد يدر عليها الأرباح الجمة. دخل الرئيس بونجو، وكان أحد أكثر اللاعبين السياسيين مهارة فى جيله، إلى أوساط شبكات الماسونيين الفرنسيين، والجمعيات الإفريقية السرية معا، وأصبح أحد أهم وسطاء وسماسرة السلطة فى فرنسا. كان مفتاح قدرة القادة الفرنسيين على ربط كبار اللاعبين - الذين يشكلون الرأى العام، والسياسيين فى أنحاء إفريقيا وخارجها - بالسياسة الخارجية الفرنسية فى فترة ما بعد الكلونيالية. وفيما أصبح نظام إلف أكثر غرابة وغموضا وتعقيدا، وتعددت طبقاته، تفرع إلى أنظمة فساد دولى على درجة من الضخامة دفعت لو فلوش - بريجان لأن يصفا الاستخبارات الفرنسية، التى كانت أيضا تغرف بسخاء من تلك الأموال القذرة بأنها «ماخور لم يعد أحد فيه يعرف من يفعل ماذا».

ساعد هذا النظام ذو السطوة الهائلة فرنسا على التدخل بقوة بما يفوق وزنها فى الشئون السياسية والاقتصادية، وعلى الازدهار وسط الفجوات الموجودة بين السلطات والاختصاصات القضائية. ازدهرت فى الملاذات الضريبية بالأوف شور ofshore.

تزامنت رحلتى إلى الجابون فى نهاية عام ١٩٩٧، مع وقائع لافتة حساسة. فى ٧ نوفمبر، بعد أقل من أسبوع من مغادرتى ليبرڤيل، حُكِم على كرستين دوڤيير - جونكور، وكانت عارضة أزياء ملابس داخلية نسائية سابقا، بالسجن فى باريس بعد إصرارها على حماية عشيقها رولان دوماس، وزير خارجية الرئيس متران. حكم عليها بالسجن بتهمة التدليس بعد أن اكتشف موظفو التحقيقات القضائية أن

إلف أكيتين قد دفعوا لها أكثر من ستة ملايين دولار لتساعد على «إقناع» دوماس، وكان أميرا متغطرساً يتحكم فى المشهد السياسى الفرنسى، لفعل أشياء بعينها – أهمها عكس معارضته العلنية لبيع زوارق الصواريخ من طراز طومسون لتايوان. كانت قد اشترت له ببطاقة ائتمان من إلف هدايا من بينها زوج من البووتس صناعة يدوية من متجر باريس نخبوى بدرجة أن مالكه كان يعرض غسل أحذية عملائه بالشمبانيا مرة كل عام.

لم يشكر أحد دوفيير – جونكور على عدم بوحها بأسماء المتورطين، وأتاحت لها مدة الخمسة أشهر ونصف الشهر التى قضتها بالسجن الوقت للتفكير فى ذلك. قالت فيما بعد «لو أن شخصا مجهولا قد أرسل لى زهرة واحدة وأنا هناك لكفانى هذا، كنت سأعرف أن المرسل هو رولان». وفى العام التالى، تخلت عن صمتها ونشرت كتابها «الجمهورية الداعرة» الذى حقق أفضل المبيعات فى فرنسا.

وهكذا، حينما وصلتُ أنا إلى الجابون فى تلك اللحظة الدقيقة، فلابد وأن الرغبة تملكت شبكة إلف لمعرفة سبب وجود صحفى إنجليزى فضولى فى ليبرڤيل. أكنتُ صحفياً بالفعل؟ لا غرو أننى لقيت كل هذا الاهتمام من المستر أوتوج. حاولت مؤخرا أن أجد سبيلى إليه لأساله عن الأسبوع الذى قضيناه معاً. لم تَعُد أرقام هواتفه القديمة موجودة بالخدمة: لم يَسمع به عدة خبراء فى الشئون الإفريقية بباريس؛ لم توصلنى أبحاثى على الإنترنت إلى معرفة أى شىء عنه أو عن الشركة التى كان قد ادعى أنه يمثلها؛ أما الشخص الوحيد الذى يحمل هذا الاسم والمدرج فى دليل تليفونات فرنسا، فكانت زوجة بإحدى القرى وأجابتنى بأنها لم تذهب أبدا إلى الجابون، هى أو زوجها.

بعد الفضيحة أعلن السياسيون الفرنسيون وفاة نظام إلف ودفنه، ومنذ آنذاك تمت خصخصة إلف أكيتين وتغييرها تماما إذ أصبحت جزءا من مجموعة توتال. بيد أن إلف لم تكن اللاعب الأوحد فى النظام الفرانكو/ إفريقى الفاسد. مثلا، لنا أن نتساءل عن سبب أن أول زعيم أجنبى هاتفه نيكولا ساركوزى بعد توليه السلطة عام ٢٠٠٧ لم يكن الرئيس الألمانى، أو الأمريكى، أو رئيس المفوضية الأوربية، بل

كان عمر بونجو؛ ولِم مازالت القوات الفرنسية موجودة بموقعها بالجابون حتى اليوم، ومازالت الأنفاق تربطها بالقصر الرئاسى الذى يقيم فيه الآن الرئيس على بونجو، نجل عمر بونجو؟. قد يكون نظام إلف قد مات، لكن شيئا آخر قد حل محله. فى يناير ٢٠٠٨، اشتكى وزير المعونات الخارجية الفرنسى چان - مارى بوكل من أن «القطيعة» مع الماضى الفاسد تسير بخطى بالغة البطء. تمت إقالته على الفور.

كان نظام إلف جزءا من عالم الأوف شور Offshore(١) ومجازا له. لا ترِد اسم الجابون على أية قائمة منشورة للملاذات الضريبية، هذا على الرغم من أنها كانت توفر تسهيلات سرية فاسدة للنخب من غير المقيمين بها، وهذا هو أحد الملامح الكلاسيكية لتلك الملاذات. ومثل نظام الأوف شور، فقد كان ذلك سرّا معروفا. كان بعض الفرنسيين متشعبى العلاقات على علم بجميع التفاصيل، وكان «أغراب» كثيرون يعلمون أن شيئا مهما يحدث، لكنهم تغاضوا عن الأمر إلى حد بعيد، فلم يكن باستطاعة أحد تقريبا تكوين نظرة كلية عامة عن الوضع. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان النظام أخطبوطا ضخما هائلا من الفساد، يؤثر فى حياة عامة الناس فى إفريقيا وفرنسا معا بأساليب عميقة لا تكاد تكون مرئية.

كان كل شىء مرتبطاً من خلال الملاذات الآمنة. نمطيا، كان تعقب التعاملات الورقية، وكما اكتشف المحققون القضائيون أثناء رحلتى إلى ليبرڤيل، يؤدى إلى المرور عبر الجابون، سويسرا، ليشتنشتاين، چرسى وأماكن أخرى. اعترفت إيڤاچولى بأنها لم تتمكن أبدا سوى من رؤية أجزاء من الصورة الكلية. قالت وهى تتحدث عن السياسات الفرنسية وسياسات عالم الأوف شور «كانت خيوط الأدلة

---

(١) يطلق هذا التعبير على بعض الجزر القريبة من الداخل مثل جزر الكايمان وچرسى والبهاما وغيرها والتى كانت جزءا من مستعمرات سابقة. ورغم أنها تتمتع في غالبيتها باستقلال ظاهرى عن البلد الأم إلا أنها مرتبطة عن كثب بالعواصم المالية والسياسية الكبرى. وتعتبر هذه الأماكن ملاذات آمنة لإيداع أموال الكبار وأموال الجريمة والأموال المنهوبة، حيث تضمن سرية المودعين ولا تخُضع أموالهم لضرائب تذكر. لكن مثل تلك الملاذات، وكما يوضح الكاتب، ليست مقصورة على الجزر، بل هى موجودة فى قلب العواصم الكبرى. ستستخدم الترجمة اللفظ الأجنبى المتداول، أو «أوف شور»، اسما لتلك الأماكن. [الترجمة]

التى لا تحصى تُفقد فى الرمال المتحركة للملاذات الآمنة. كان يتم حماية الحسابات الشخصية للملوك، والرؤساء المنتخبين، والحكام المستبدين من فضول المحققين القضائيين. أدركت أننى لم أعد فى مواجهة شيء هامشى، بل نظام متكامل. لا أرى هذا فقط بصفته إجراما مروّعا متعدد الأوجه يحاصر حصوننا بالداخل. بل أراه نظاما راسخا للسلطة، يحظى بالاحترام، نظاما تقبل هذا الفساد الكلى المهيب كجزء طبيعى من معاملاته اليومية».

كنت، وقبل زيارتى الأولى لليبرڤيل بوقت طويل، قد لاحظت كيف أن الأموال كانت تتدفق إلى خارج إفريقيا، لكن السرية التى تحيط بعالم الأوف شور جعلت من المستحيل تعقب الرابطة. كان بعض المحامين والمؤسسات المالية يظهرون على السطح فى قصص بعينها، ثم ينزلقون عائدين إلى ظلمة الأوف شور والسرية التجارية والتكتم المهنى. وفى كل مرة تنفجر فيها فضيحة كانت الأدوار الحاسمة لأولئك اللاعبين تتجنب التفحصات الجادة. زعمت القصة الرائجة أن لمشاكل إفريقيا علاقة بثقافتها وحكامها، أو بشركات النفط، أو إرث الاستعمار. كان من الواضح أن القائمين على سرية الأوف شور جزءا أساسيا من جميع الأحداث والوقائع، لكن كان من بالغ الصعوبة اختراق كل تلك الجلبة والوصول إلى الحقيقة، كما أنه بدا وأن ليس ثمة من يهتم. لم يكن حتى عام ٢٠٠٥ أن بدأت الخيوط تتجمع بالنسبة لى. كنت جالسا مع محامى من نيويورك عمل سابقا مع شركة كورب [المالية] واسمه دايڤيد سپنسر، وكنا نتحدث عن الشفافية فى المالية العامة للدول الإفريقية المنتجة للنفط. بدأ حماس سپنسر يتصاعد وهو يتحدث عن أمور لم تكن على أجندتى مطلقا: القواعد المحاسبية، الإعفاءات الضريبية على دخول الفوائد، وتسعير التحويلات. أخذت أعجب حول متى يبدأ الحديث عن الفساد فى غرب إفريقيا حينما أدركت الرابطة أخيرا. إن الولايات المتحدة من خلال عروضها للسرية وتقديمها حوافز ضريبية من أجل اجتذاب الأموال الأجنبية كانت تحوّل نفسها إلى ملاذ ضريبى آمن.

تحتاج، حكومة الولايات المتحدة إلى تدفق الأموال الأجنبية إليها، وتقوم بعرض السرية والإعفاءات الضريبية لاجتذاب تلك الأموال. أوضح سبنسر أن هذا أصبح مركزيا فى استراتيجية حكومة الولايات المتحدة الكوكبية. تتدفق فيضانات من رءوس الأموال النقدية حول العالم فى استجابة لبعض التغييرات البسيطة فى أنماط الحوافز. قال سبنسر إن الأمر لا يقتصر على أنه لا يكاد يوجد من يفهم هذا، بل أيضا أنه لا يكاد يوجد من يريد أن يعرفه. قال إنه ألقى خطاباً ذات مرة فى إحدى المناسبات الكبرى التابعة للأمم المتحدة أوضح فيه الخطوط العريضة لتلك المبادئ الأساسية، بعدها أبلغه أحد كبار مفاوضى الولايات المتحدة أن إلقاءه الضوء على هذا الموضوع يجعل منه «خائنا لوطنه».

فى نادى هارڤارد، بدأت أري مدى ارتباط التكلفة البشرية البشعة للفقر وعدم المساواة فى إفريقيا بعالم القواعد المحاسبية والإعفاءات الضريبية. تشترك كوارث إفريقيا الطبيعية أو الحتمية المفترضة فى شيء واحد: حركة الأموال خارج إفريقيا وإلى أوربا والولايات المتحدة، بمساعدة الملاذات الآمنة والجيوش الجرارة من المصرفيين والمحامين والمحاسبين المُحترمين ذوى البذلات الأنيقة. لكن ليس ثمة من كان يريد أن ينظر خارج نطاق إفريقيا إلى النظام الذى جعل هذا ممكنا.

لكننا حتى إذا فكرنا فى مصطلح «هروب رأس المال» ذاته، نجد أنه يلقى المسئولية على البلد الذى يفقد الأموال- نوع من لوم الضحايا. بيد أن كل هروب لرأس المال من إفريقيا لابد وأن يكون له ما يناظره من تدفق للأموال فى مكان ما. من كان يُجرى الأبحاث على تلك التدفقات؟ لم يكن نظام الأوف شور مجرد مشهد جانبى غرائبى فى القصص التى كنت أقوم بتغطيتها، بل كان هو ذاته القصة. إنه يربط معا ليبرڤيل وباريس، لواندا وموسكو، قبرص ولندن، مكسيكوسيتى وجزر الكايمان، واشنطون والرياض. يربط الأوف شور وعالم الجريمة السرى بالنخب المالية، والمؤسسات الاستخباراتية، والديبلوماسية بالشركات متعددة الجنسية.. يحفز الأوف شور الصراعات، ويُشكل مدركاتنا ويخلق عدم الاستقرار المالى،

ويسلم جوائز مذهلة مبهرة للكبار، للأشخاص المهمين. إن الأوف شور هو الكيفية التى يعمل وفقها عالم القوة والسلطة الآن. وهذا ما سأوضحه لك فيما يلى.

ظل ثمة انطباع فى بعض الدوائر الإعلامية العالمية، ومنذ أن قام زعماء العالم فى عامى ٢٠٠٨ و٢٠٠٩ بشجب الملاذات الضريبية، بأنه قد تم تقويض نظام الأوف شور، أو على الأقل، تدجينه كما يجب. لكن، وكما سنرى، فإن العكس هو ما حدث. إن نظام الأوف شور يتمتع بموفور الصحة - ويتنامى سريعا.

obeikandl.com